



التراث والتنمية الحدودية بين تونس والجزائر

محمد الأزهر غربي*

الملخص

تعتبر الحدود الجزائرية التونسية مجالا قائما بذاته له شخصيته الطبيعية والبشرية التي جعلت منه منطقة بعيدة عن دائرة السلطة المركزية وعن مجالات النمو التي ارتبطت منذ الحقبة الاستعمارية بالسواحل. وفي واقع الأمر يحتوي هذا المجال على ثروات طبيعية عديدة تزخر بها جبال وغابات وأودية الشمال من مياه ومحميات طبيعية ونباتات طبية وغير طبية. وعلاوة على هذا التراث الطبيعي يوجد موروث استعماري كالخطوط الحديدية وبعض الثروات المنجمية التي تخلت الدول الوطنية على استغلالها.

وتمتد نفس الشبكة الحديدية في المنطقة الوسطى من الحدود الجزائرية التونسية حيث لا تزال بعض القرى والبناءات الاستعمارية في وضعية تهددها بالانهيار شأنها شأن التراث الثقافي لبعض المجموعات المحلية.

أما الحدود الجنوبية فهي تزخر بالتراث الصوفي والصحراوي وخاصة طرق استغلال مياه الواحات التي أصبح بعضها مهددا بمختلف مظاهر التلوث.

يمكن للسكان المحليين أن يعيدوا الاعتبار لشتى أصناف التراث الذي تزخر به مختلف مناطق الحدود ويستغلوه بطرق تحافظ على البيئة وتجعل منه منتوجا جديدا يستعمل إما للسياحة أو للتسويق له عن طريق التقنيات الجديدة ليكون شكلا من أشكال الانصهار في العولمة.

ولن تنجح هذه التنمية الحدودية المستدامة إلا بتصالح الأفراد والمجموعات الحدودية مع هوياتهم المحلية والوطنية.

الكلمات المفتاحية: التراث الطبيعي، التراث المادي، الحدود، التنمية، الهوية، الثقافة.

Résumé

La frontière algéro-tunisienne constitue un territoire qui se distingue par une certaine spécificité naturelle et humaine lui octroyant une identité particulière. En effet, le Nord forestier couvrant la zone frontalière des deux pays, est riche en patrimoine naturel (parcs naturels, espèces animales rares, plantes médicinales...). Par ailleurs, cette même région dispose d'un riche héritage colonial : gares, lignes de chemin de fer, sites de mines délaissées, fermes...).

Sans parler des sites archéologiques romains et autres, la partie centrale de la même frontière, est habitée souvent par les mêmes communautés tribales ayant un même patrimoine culturel. Quant à la partie sud de la frontière algéro-tunisienne, elle est riche en patrimoine matériel et immatériel (oasis, gestion de l'eau, culture et pratiques sahariennes...).

Le patrimoine naturel et culturel de la frontière algéro-tunisienne, constitue un atout de développement durable d'un territoire considéré à tort par ses populations comme zone défavorisée.

Mots clés : patrimoine naturel, patrimoine matériel, frontière, développement durable, culture, identité.

* مدير مخبر التبادل المغاربي والإفريقي والاوروبي جامعة منوبة.



Abstract

The Algerian-Tunisian border is an area in its own right with its own natural and human character that has made it to a region far from the central authority and from the areas of growth that have been linked to the coasts since the colonial era. In fact, this area contains many natural resources that abound in the mountains, forests and valleys of the north, including water, natural reserves, medicinal and non-medicinal plants. In addition to this natural heritage, there is a colonial legacy such as railways and some mining resources that the national states have abandoned.

The same railway network extends in the central region of the Algerian-Tunisian border, where some villages and colonial buildings are still in a state that threatens them with collapse, as is the cultural heritage of some local groups.

As for the southern border, it is full of Sufi and desert heritage, especially methods of exploiting oases water, some of which have become threatened by various forms of pollution.

Local residents can restore the various types of heritage that abound in the various border areas and exploit them in ways that preserve the environment and make them a new product that can be used either for tourism or for marketing it through new technologies to be a form of integration into globalization.

This sustainable border development will not succeed unless border individuals and groups reconcile with their local and national identities.

Keywords: Natural heritage, borders, development, identity, culture.

المراجع لذكر المقال

محمد الأزهر غربي، «التراث والتنمية الحدودية بين تونس والجزائر»، السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغربية [نسخة الكترونية]، عدد 18، سنة 2024.

الرابط : <http://www.al-sabil.tn/?p=3238>



طفت مسألة التراث على السطح منذ منتصف القرن الماضي، وقد لعبت اليونسكو منذ ظهورها كهيئة تابعة للأمم المتحدة دورا في ذلك عن طريق عدة آليات من بينها إدراج بعض المواقع ضمن لائحة التراث العالمي أو إعانة الدول على حماية تراثها الوطني أو التوعية بقيمة التراث وتصنيفه إلى فرعين "التراث المادي" و"التراث غير المادي". وعلى هذا الأساس أدرجت بمختلف الجامعات في العالم أقسام للتراث ولآثار. ومع هيمنة العولمة منذ نهاية القرن الماضي تعمق الوعي بالتراث باعتباره أحد أهم مقومات الهويات الوطنية أو المحلية، بل أصبح يستعمل كسلاح لإثبات الذات ومقاومة العولمة، وعلى هذا الأساس تطوّرت المسألة واتخذت أبعادا جديدة لعل أبرزها ما يلي:

- ظهور معارك من أجل التراث، بعضها دبلوماسي وسياسي مثل مطالبة بعض البلدان الإفريقية من بينها الجزائر باسترجاع تراثها الذي نهب خلال الحقبة الاستعمارية، وبعضها عسكري استهدف تدمير التراث عن طريق الحروب كما حصل في العراق وفي فلسطين بغية طمس معالم بعض الهويات الثقافية.

- تحوّل التراث إلى رافد من روافد التنمية على المستوى الوطني أو المحلي والجهوي قصد معالجة الخلل الناجم عن عدم التوازن بين الجهات ومعالجة معضلة البطالة التي استفحلت في المجال الحدودي الذي سمّيت بعض مناطقه "مناطق الظل"¹ أو "المناطق المهمّشة"² حيث يشعر أصحابها ب"الحقيرة"³ بسبب بعدهم عن المركز وعدم إقحامهم في مشاريع حكومية.

- تقلص دور الدولة الراعية⁴ في جُلّ بلدان العالم إثر التراجع عن الاشتراكية-كما حصل في تونس ثمّ في الجزائر- واستفحال الأزمات العالمية، قلّص من دورها الاقتصادي الأمر الذي استلزم توخّي مقاربات جديدة للتنمية تعتمد على الفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين على الثروات المحلية، وعلى هذا الأساس أصبح اعتماد التراث كأداة للتنمية ضرورة اقتصادية واجتماعية.

وفي هذا الإطار يتنزل الموضوع قيّد الدرس ونحاول أن نجيب من خلاله على سؤال مركزي هو كيف يمكن أن نوظف التراث من أجل تنمية حدودية تجمع بين الجزائر وتونس؟

1. المجال الحدودي الجزائري التونسي قاعدة للتنمية المستدامة

يفرق علماء الاقتصاد بين النمو⁵ والتنمية⁶، فالنمو يتعلّق أساسا بالاقتصاد (هو اقتصادي...)، وهو يتمثّل في برامج ومخططات وتوقعات واستثمارات وإنتاج وأرباح يعبر عنها غالبا بأرقام ونسب تشمل في الغالب الأعم الاقتصاديات الوطنية ... ونذكر كمثال على ذلك مختلف المخططات التي ضببتها الجزائر أو تونس خاصة في المرحلة لاشتراكية للنهوض باقتصادها لحلّ مشكلة "التخلّف"⁷. وبذلك فإنّ الفاعل الأساسي في مسألة النمو هو الدولة بالدرجة الأولى والمؤسسات بالدرجة الثانية والفاعلون الاقتصاديون المحليون بالدرجة الثالثة. ولئن كان الفرد أو المواطن هو هدف برامج النمو فإنه شبه مغيب على مستوى القرار.

¹ العبارة استعملت من قبل السلطة في تونس زمن بن علي.

² ساد استعمال هذه الكلمة في السنوات الأخيرة في تونس.

³ الكلمة مستعملة أساسا في الجزائر، كما أنها منتشرة في المناطق الحدودية التونسية.

⁴ L'Etat –providence

⁵ Croissance

⁶ Développement.

⁷ Samir Amin, 1973, Le développement inégal. Essai sur les formations sociales du capitalisme périphérique, Paris, Edition de Minuit,



أما التنمية فهي أيضا تستهدف الإنسان فردا كان أو مجموعة ولكنها تنطلق منه وتعتمد عليه ويكاد يكون هو الفاعل الأساسي لتعود منفعتها عليه مباشرة. ولا يعني ذلك إقصاء للدولة بقدر ما يعني ترك حرية للمبادرة الفرد وتدعيمه من قبل الدولة. وعلى هذا الأساس فإن قاعدة التنمية هي المستوى المحلي بينما قاعدة النمو هي غالبا المستوى الوطني. ومنذ انتهاء مرحلة الاشتراكية على الصعيد العالمي أصبحت التنمية المحلية أو الجهوية هي المقاربة المعتمدة في جل بلدان العالم لبناء اقتصاد وطني. ومع تهديد العولمة للاقتصاديات الوطنية أصبحت التنمية المحلية أو الجهوية تمثل الطريقة الأفضل لمواجهة الانعكاسات السلبية للعولمة باعتبارها "إقلاع" من الأسفل في اتجاه الأعلى خلافا للنمو الذي يكون في الاتجاه المعاكس.

وتقتضي التنمية كمقاربة للنمو الجهوي أو المحلي أمرين:

- دراسة الإنسان وثقافته وهويته وخصائصه، مجموعة كان أو أفرادا، باعتباره الفاعل والهدف الأساسي لعملية التنمية. ولابد حينئذ، في موضوع الحال، من دراسة مختلف الهويات المحلية المكونة للمنطقة الحدودية الجزائرية التونسية.

- دراسة المجال الحدودي كقاعدة طبيعية أو جغرافية للتنمية. ولا يعتبر هذا لأمر ضرورة منهجية بل إنه أصبح من شروط التنمية أن تنطلق من المعطيات الطبيعية وتوظفها مع المحافظة عليها، وهو ما يعبر عنه بـ "التنمية المستدامة" التي أصبحت الطريقة الأكثر اعتمادا على مستوى العالم في ظل الأزمات الطبيعية والاقتصادية على مستوى المعمورة الأمر الذي يهيئ لاقصاد جديد هو "الاقتصاد الدائري"⁸ الذي يختلف تماما عن الاقتصاد الخطي وذلك بحسن استعمال المواد المتاحة مراعاة للطبيعة وترشيدها للاستهلاك.

فما هي الخصوصيات الطبيعية والبشرية للمجال الحدودي الجزائري التونسي وماهي الهويات المحلية أو الجهوية التي استطاعت تمييزه؟

-الخصائص الطبيعية: يتكون المجال الحدودي التونسي-الجزائري من نفس الوحدات الطبيعية من سلاسل جبلية تتخللها أحواض، وهي تبدأ في الشمال وتنخفض تدريجيا في اتجاه الوسط لتظهر من جديد في منطقة القصرين وقفصة. وهي جميعها امتداد للأطلس التلي وللسلسلة الظهرية التي تشق الجزائر وتنتهي جميعها قرب السواحل التونسية. أما في الجنوب فتمتد الصحراء والشطوط بين البلدين وهي تنتمي جميعا إلى مجال أرحب هو مجال الصحراء الكبرى التي تتخللها بعض الواحات. وتخضع هذه التضاريس التي يكسوها غطاء نباتي كثيف في الشمال ونتف من الأعشاب في الحدود الجنوبية إلى نفس المناخ المتوسطي والقاري الذي يتحول تدريجيا إلى مناخ صحراوي. وقد فوجئ أصحاب الدراسات الاستكشافية والجغرافية الفرنسية منذ القرن التاسع عشر بتواصل نفس الخصائص والمشاهد الطبيعية التي تجمع بين تونس والجزائر⁹ حيث ينتمي البلدان إلى وحدة طبيعية كانت قاعدة لنفس الهوية البشرية.

⁸ « L'économie circulaire ».

Sébastien Sauvé, Daniel Normandin, Mélanie McDonald, 2016, *L'économie circulaire, une transition incontournable*, Montréal, PUM.

محمد حميد محمد "الاقتصاد الدائري ودوره في تحقيق التنمية والمستدامة"، مجلة الريادة للمال والأعمال، العدد الثالث، 2021، ص 168-159.

⁹ *Sahara algérien et tunisien. Journal de route d'Henri Duveyrier*, publié et annoté par Charles Maunoir et H. Chirmer, Auguste Challamel Editeur, Paris, 1905.

Charles Monchicourt, « La frontière algéro-tunisienne dans le Tell et dans la Steppe », *Revue africaine*, n° 374-375, 1938.



أما من الناحية البشرية فقد أنجزت عدة دراسات للمجال الحدودي الجزائري التونسي تتعلق بالفترة القديمة وأخرى تناولت الحقبة الحديثة والمعاصرة¹⁰ ويمكن أن نستخلص منها بعض الاستنتاجات لعل أبرزها ما يلي:

- أن الحدود الجزائرية التونسية تسكنها نفس المجموعات القبلية من بينها نهد وشارن وأولاد بوغانم والطرود والنامشة والشايبية وغيرهم. وهي قبائل عرفت بشجاعتها ومقاومتها للقوى الغازية (ثورة 1864، ثورة 1871 حركة الفلاحة والثورة الجزائرية)¹¹.

- إذا أخذنا بعين الاعتبار التضاريس والسكان يمكن أن نعتبر المنطقة تمثل مجالا قائما بذاته يجمع بين البلدين أكثر مما يفرق بينهما وهو عبارة عن مستطيل عريض يبدأ من الجبال المتاخمة للبحر ويتواصل ليتلاشى في الصحراء. وبصرف النظر عن صعوبة بل استحالة تصوّر خط حدودي بالمفهوم الأوروبي يحسم المسألة داخل هذا الكيان فإن أي شكل من أشكال التنمية لا ينجح إلا إذا شمل كل المجال الحدودي ببعديه التونسي والجزائري.

- أن هذه المنطقة طغى عليها اقتصاد يعتمد على الإنتاج الغايي والماشية وخاصة المبادلات التجارية سواء عن طريق الأسواق مثل سوق فرنانة في الفترة الحديثة أو عن طريق "الكنتره" أو "التهرب".

- بصرف النظر عن التغيرات التي أحدثتها الاستعمار أو الدولة الوطنية فإن المجال الحدودي حافظ على بعض الثوابت التي استمرت من الفترة القديمة إلى اليوم (استمرارية العلاقات البينية التي تربط الجزائر بتونس، الجنوح إلى الاستقلالية، تعاوي "الكنتره"، توظيف المجال الغايي في الشمال والفضاء الصحراوي في الجنوب...). ونعتبر أنه لا بد من الأخذ بهذه الثوابت في كلّ عملية تنموية، ولعلّ أهمها استغلال الثراء أو التراث الطبيعي للمنطقة.

2. التراث الطبيعي والتنمية المستدامة

سننصّ في بقية البحث إلى المقومات التراثية الجزائرية التونسية للتنمية والمتوقّرة - كما أسلفنا - في عالم الحدود غير أننا سنركّز على نماذج وأمثلة تونسية ونحن على يقين أن لها مثيلاتها من الجانب الجزائري، ونعتبر أنه لا جدوى من الوقوف في كل مرّة لإجراء مقارنة تبدو من قبيل تحصيل الحاصل.

في ظل ما شهده الكون من انخرام في التوازنات الطبيعية وثقب الأوزون والتقلبات المناخية وشح المياه أصبحت "التنمية المستدامة" هي أساس المستقبل. ويعني هذا المصطلح المحافظة على البيئة في كل عملية إنتاج واستغلال المواد الطبيعية لتغيير طبيعة الإنتاج الذي يتلاءم مع صحة الإنسان ويأخذ بعين الاعتبار حق الأجيال القادمة في بيئة سليمة (عدم الإفراط في استعمال المياه في الصناعة، تعويض المواد الكيماوية بأخرى طبيعية...).

وفي هذا السياق تمثل الجبال بكل مكوناتها أهم معطى طبيعي في الشمال والوسط وهي تحتوي على غابات كثيفة كانت مطمعا للشركات الاستعمارية. كما تنتج أشجار هذه الغابات ثمارا أو مواد أولية كالخشب والخفاف يمكن تحويلها عن طريق مؤسسات صغرى ومتوسّطة في مجال الصناعة أو الصناعات التقليدية. ونذكّر في هذا الصدد

¹⁰ Arbia Helali, « La frontière romaine de Tunisie : l'axe Tacapes-TurrisTmalleni », Commission Nationale d'Histoire Militaire, *Les Confins de Tunisie à travers les âges*, Ministère de la Défense Nationale, Tunis, 2012, pp. 7-23.

Mohamed Larbi Haouat, *Le problème frontalier de la Tunisie depuis l'époque ottomane jusqu'à nos jours*, Université Paris III Sorbonne nouvelle, 2003-04, dactylographié

¹¹ منصف التايب، "المجال والسلطة في البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة"، *روافد*، العدد الرابع، 1998 ص 7-45.

خالد حمري، *المجال الحدودي بالشمال والوسط الغربيين للبلاد التونسية 1871-1962*، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة، 2020-2021، ص 33-40.

محمد الأزهرغري، "تحييز المجال القبلي التونسي-الجزائري. هل صنع الاستعمار الحدود؟"، *الحدود والمناطق الحدودية ببلاد المغرب عبر التاريخ*، فعاليات الندوة الدولية العلمية الثانية قصة (3-6 ماي 2023)، 2024، تونس، ص 365-391.



بالقيمة الطبية لبعض النباتات الغابية التي تستغل في مجال الأدوية الطبيعية مثل زيت الريحان وكذلك الكليل والزعر في منطقة السباسب التونسية الجزائرية دون أن ننسى مادة "الهندي" التي أصبحت تحوّل وتصدّر إلى الخارج. أما في الجنوب فإن النخيل والتمور تعتبر أهم ثروة تنتج في المجال الصحراوي إذا وقع توفير المياه في المناطق الحدودية مثل رجيم معتوق في تونس ومنطقة القمار التابعة لولاية الوادي في الجزائر.

كل ذلك وغيره يمكن إنتاجه وتطويره بتثبيت السكّان في المناطق الحدودية وإنشاء جمعيات أو مؤسسات بتمويل مشترك جزائري تونسي. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد مجموعة الرعاة التي تأسست في جبل سمامة وأصبحت تنمي المنطقة وتروّج إلى إنتاجها من الطبيعي وذلك بصرف النظر عن منتوجها الثقافي.

ومن ناحية أخرى يمكن الاستفادة من التراث الطبيعي والمشهد المتميز لغابات الشمال لتطوير السياحة الجبلية بتهيئة مسالك مشتركة وإنشاء فنادق للرياضة وغيرها خاصة وأن بعض المناطق أنشئت بها وقت الاستعمار محطات للتزحلق على الجليد (جبال اشمال الشرقي الجزائري). أضف إلى ذلك بعض المحميات الطبيعية الموجودة قرب الحدود مثل محمية فايحة في الشمال التونسي وهي تطلّ على التراب الجزائري وكذلك محمية "خشم الكلب" بجهة القصرين. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد مثال لبعض الطيور التي أصبحت نادرة لا تزال بض البقايا في المناطق التخومية مثل "بومزين" في الوسط و"الحبارة" في الجنوب، كما نشير أيضا إلى ظاهرة الطيور المهاجرة التي تقدم من أوروبا شتاء وتحط بمحمية جبل إشكل ثم تنتقل إلى القالة ومنها تتجه عبر التخوم الجزائرية التونسية نحو الصحراء وهي محلّ دراسة ومتابعة من طرف الاخصائيين¹². كل ذلك يمكن أن يكون دافعا لشكل جديد من السياحة هو السياحة البيئية.



صورة 1. مشهد طبيعي بالحديقة الوطنية بفايجة ولاية جندوبة.

المصدر: https://fr.wikipedia.org/wiki/Parc_national_d'El_Feija, consulté le 15 avril 2024

وإلى جانب السياحة والمواد الغابية، التي يمكن أن تستغلّ عن طريق مؤسسات صغرى أو متوسطة، تتوفر ثروة طبيعية أخرى هامة تزرع بها المناطق الجبلية -ونعني بها المياه-¹³ التي لا يمكن استغلالها إلا عن طريق مشاريع ضخمة تنخرط فيها الدولتان وذلك بإنشاء السدود خاصة وأن أغلبها من الجانب التونسي قريب من المناطق الحدودية مثل سد بربرة (في معتمدية فرنانة) وسد بني مطير. ويكتسي الماء أهمية كبرى في المستقبل حيث أصبح سلاحا يوظف في المعارك لذلك سمّي "البتروال الأزرق" وأصبحت الحكومات تتحدث عن ضرورة توفير الأمن المائي.

¹² لقاء مع الخبير في البيئة وفي التنمية المستدامة طارق التفري في 13 أبريل 2024.

¹³ Mohamed Elloumi, « La gouvernance des eaux souterraines en Tunisie », *IWMI project report n°7, Groundwater governance in the Arab World*, décembre 2016, pp. 91-95.



وإذا مثلت الحدود الشمالية مدّخرا للمياه فإن الحدود الجنوبية عرفت بشحّها المائي غير أنّ بعض الدراسات بيّنت توفّر حوض مائي للصحراء الشمالية يجمع بين تونس وليبيا والجزائر يستغله مل طرف على حدة وبشكل منفرد، ولا بد حينئذ من التنسيق بين هذه البلدان لحسن التصرف في هذه الثروة التي لأصبحت مهددة يمكن استغلالها بصفة مشتركة¹⁴.

تمكّن هذه المشاريع التي تعتمد على استغلال التراث الطبيعي المشترك بين البلدين من إحداث تنمية مستدامة عن طريق تثبيت السكّان (القضاء على النزوح) وتكوين جمعيات أو مؤسسات صغرى ومتوسطة تستفيد من التراث الطبيعي لتخلق منه منتوجا إضافة إلى ما يمكن غراسته في هذه الأراضي من أشجار وزراعات بيولوجية ليسوّق كل ذلك في الداخل والخارج وهو ما من شأنه أن ينمّي السياحة البيئية أو الفلاحية التي قد تستفيد إلى جانب ذلك من التراث المادي الذي ليزخر به المنطق الحدودية.

3. التراث المادي أحد مقومات التنمية الحدودية

يزخر المجال الحدودي بشتى أصناف التراث المادي نقتصر على أربعة أصناف وهي شبكة السكك الحديدية، والمناجم والمواقع الأثرية والمدن.



صورة 2. خريطة الشبكة الحديدية من الجانب التونسي من إنتاج الشركة التونسية للسكك الحديدية وضعتها على ذمة الركّاب.

تعود شبكة السكك الحديدية بالبلدين إلى الحقبة الاستعمارية وأساسا إلى النصف الثاني للقرن التاسع عشر وقد بنيت عن طريق نفس الشركات ("عناية قاملة" و"الباطينيول") وتقريبا بنفس المواصفات. ولعلّ أهم خاصية تميّزها هو أنها

¹⁴ مرصد الصحراء والساحل، الحوض المائي للصحراء الشمالية الجزائرية وليبيا وتونس، الإدارة المشتركة لحوض عابر للحدود، تونس، 2009.



تتجه جميعها من الجانب الجزائري ومن الجانب التونسي نحو الحدود، ومنها من يمكّن من المرور مباشرة من تونس الى الجزائر (خط غار الدماء)¹⁵. ولنا أن نعتبر على هذا الأساس أننا إزاء شبكة واحدة أصبحت بعض خطوطها في تونس أو في الجزائر خارجة عن الخدمة في وقت طغى فيه التنقل في البلدين بالسيارة مع ما نتج عن ذلك من مشاكل كالتلوث والحوادث وغيرها. وتوضّح الخريطة الآتية ترابط المجال التونسي الجزائري عن طريق الخطوط الحديدية. يجدر حينئذ إعادة تشغيل الخطوط المعطّلة التي تحتوي على محطات شيّدت حسب طراز معماري رائع نذكر منها محطة حيدرة.



صورة 3. محطة حيدرة ذات طراز معماري متفرد.

المصدر: <https://www.webdo.tn/fr/actualite/les-billets-de-hatem-bourial/patrimoine-entree-du-train-en-gare-de-haidra/188254>,
consulté le 14 avril, 2024

إننا نعتقد أن إعادة تشغيل الخطوط الحديدية وتكثيف استعمالها أصبح ضرورة ملحة لنقل البضائع والمسافرين بين البلدين، خاصة وأنه وقع التفكير في الحقبة الاستعمارية في تصدير مواد منجمية من الجنوب الشرقي الجزائري إلى بعض الموانئ التونسية لقرب المسافة وقلة الكلفة¹⁶. بل يمكن أن نعتبر أن إعادة تشغيل الشبكة الحديدية الجزائرية التونسية أصبح ضرورة بيئية واقتصادية ويجب السعي إلى اعتمادها كقاعدة لحركة التنقل بين البلدين خاصة في المواسم السياحية، علاوة على إمكانية إعداد مسالك سياحية عن طريق القطار قادرة على جلب السياح من الداخل ومن الخارج وهو ما من شأنه يخلق مواطن شغل جديدة ويكسب المناطق الحدودية وإنتاجها قيمة مضافة.

ولا بد من التأكيد في هذا السياق الصدد على المناجم الموجودة في المجال الحدودي مثل مناجم الحديد "شركة مقطع الحديد" بالشرق الجزائري وبتمرة والجريصة كذلك بالقلعة الخصبية والونزة والكويف وقفصة... لقد استغلت هذه المناجم خلال الحقبة الاستعمارية تقريبا نفس قبل الشركات الكبرى -وإن تغيّرت التسميات المحلية- وهيمنت عليها نفس البنوك ورؤوس لأموال¹⁷ وشيّدت قرى منجمية وبنات إدارية ومستوصفات كانت تنبض بالحياة، ولكن هذه المناجم تضاءل إنتاجها وأغلق الكثير منها- على الأقل من الجانب التونسي- وأصبحت قفرا وخرابا. وليست غايتنا من

¹⁵ Mohamed Lazhar Gharbi, Impérialisme et réformisme au Maghreb. Histoire d'un chemin de fer algéro-tunisien, Cérès Production, Tunis, 1994.

¹⁶ Voir aussi Safa Achouri Gaharsalli, 2017, Renaissance et extension de la gare de Haïdra, mise en valeur d'un patrimoine ferroviaire, Editions universitaires européennes, Sarrebruck.

¹⁷ Ridha Shili, Milieux d'affaires et activités minières coloniales, les mécanismes de l'emprise des structures (Le cas de quelques mines du Centre-Ouest tunisien 1900-1956), thèse de Doctorat, Université de Reims Champagne Ardenne, 1996.



وراء هذا الكلام تمجيد الاستعمار الذي كان جريمة في حق الأرض والسكان والإنسانية، ولكن نريد أن نؤكد على ضرورة التصالح مع التراث الاستعماري وتوظيفه لصالح التنمية الحدودية. لقد أصبح التراث المنجمي - خاصة بالمناطق الحدودية باعتبارها بعيدة عن عيون السلطة - عرضة للسرقة والنهب وتحولت مباني فاخرة إلى حالة هدم وخراب دون وعي بقيمتها التراثية. ونقتصر على ذكر منجم بلطة بعوان بولاية جندوبة الذي كانت مبانيه غاية في الروعة والجمال فسرق الحديد ونهبت الثروات بما فيها أرشيف الشركة وكان بالإمكان المحافظة على هذا التراث وتحويل البناءات على مقر لمصانع أو مغازات أو متحف أو فضاءات لأنشطة ثقافية.



صورة 3 و 4. موقع منجم بعوان.

المصدر: <https://cultpatr.blogspot.com/2017/10/le-village-de-bou-aouane-et-sa-mine.html>, consulté le 13 avril, 2024

ولا تمثل بعوان حالة وحيدة أو شاذة من الجانب الحدودي التونسي وإنما الأمثلة متعددة ومعروفة نذكر منها مناجم جهة الكاف مثل مناجم جبل سلاطة وجبل حميمة¹⁸ ومناجم خمير ونفزة¹⁹ ومنجم جبل الديس²⁰ بولاية جندوبة ولعل القاسم المشترك بين جل هذه المؤسسات أنها أحدثت من طرف شركة فرنسية كبرى منتصبة من الجهة المقابلة على الحدود الجزائرية ونعني بها "شركة مقطع الحديد" وهو ما يسر إعادة إحيائها بصفة مشتركة بين البلدين.

لقد حصلت تجارب في كل من تونس والجزائر حيث استغلت تونس إنتاج الحديد للشمال الغربي لإنشاء مصنع الفولاذ واستطاعت الجزائر تحويل بعض المؤسسات الصناعية الفرنسية إلى مؤسسات أوروبية مثل تجربة فروفيال²¹ بمنطقة عنابة، ولكن مثل هذه التجارب لا تزال غير كافية ويمكن أن يحتذى بها لتوسيع التجربة في حقول أخرى²².

ويستلزم الأمر ضبط خطة في الغرض تبدأ بإعادة تشغيل المناجم التي تزال تحتوي على معادن بباطنها وإحصاء المواقع التراثية المهتدة وحمايتها وإعادة توظيفها بالتعاون بين الفاعلين التونسيين والجزائريين وقد يساهم في هذه العملية بعض المؤسسات المصرفية التي امتصت ثروات وفوائد استغلال هذه السنوات خلال عدة عقود.

¹⁸ Société belge des Mines du Djbel Slatat Djebel Hmaeima.

¹⁹ Société des mines de fer de Kroumirie et des Nefza.

²⁰ La société anonyme des Mines de Jbel Diss.

Voir site https://www.entreprises-coloniales.fr/afrique-du-nord/Djebels_Slata+Hameima.pdf, consulté le 12 avril, 2024.

²¹ Mohamed Salah Boukechour, De De Dietrich à Ferrovia. Destin d'une entreprise de la colonisation à l'indépendance de l'Algérie, Darkortoba, Alger, 2016.

²² EL WATAN, 5 juillet 2021.



أما فيما يتعلق بالشبكة الحضرية فهي تحتوي على موروث عمراي ومعماري ذي قيمة حضارية واقتصادية. يمكن أن نذكر تبسة وقسنطينة وسوق أهراس وقالمة والقالة من الجانب الجزائري وطبرقة وعين دراهم والكاف والقصرين من الجانب التونسي. فإلى جانب الانتماء المشترك لأغلب سكان هذه المدن فإنها شهدت تقريبا نفس الأحداث التاريخية إلى درجة أنه أصبح مصيرها مشتركا. ولعله من الجدير أن يكون هذا الرصيد المشترك قاعدة لتنمية مندمجة تقوم على أساسين

- تنمية محلية مندمجة ومشتركة تجمع بين سكان كل مدينتين متاخمتين (مثلا القالة وطبرقة كذلك تبسة والقصرين).

- إنشاء مناطق تبادل حرّة كما هو الشأن في الجهات الحدودية في جل بلدان العالم خاصة وأن بعض المناطق كانت تاريخيا تلعب ما يشبه هذا الدور مثل سوق فرنانة. ففي ساقية سيدي يوسف في كل احتفال في 8 فيفري تثار مسألة الإعداد إلى مشاريع اقتصادية مشتركة غير أن ذلك يبقى حبرا على ورق ولعله من الأجدر إحداث منطقة تبادل حرّة في هذا المكان الرمزي كي تتخذ "الأخوة الجزائرية التونسية" بعدا واقعا ولكي تصبح هذه المنطقة الحدودية قطبا للتنمية المشتركة.

ولعله من الجدير بالذكر أن هذا التراث المادي يمكن يدعم بالتراث غير المادي المشترك لئلا تنمية حدودية تونسية جزائرية.

4. التراث اللامادي : الثقافة والذاكرة المشتركة للمجال الحدودي

ترتبط نفس الثقافة بين المجموعات البشرية من جانبي الحدود سواء من حيث اللغة والمعتقد والطقوس والعادات (الغناء والموسيقى والطبخ...) وكذلك الموروث التاريخي. ورغم أن المواقع الأثرية تصنّف غالبا ضمن التراث المادي فقد أقمناها ضمن التراث الثقافي-أي اللامادي-باعتبار رمزيّتها الحضارية وإمكانية تحويلها إلى منتج ثقافي عن طريق تثمين التراث الأثري بكل مكوناته التاريخية بدأ بالمرحلة اللولية والنوميدية وصولا إلى الحقبة الاستعمارية مع ضرورة استيعاب كل مكونات هذا التراث دون تمييز بين فترة وأخرى، فسببيلة وتيمقاد وكل ما تزخر به المناطق الحدودية من مواقع أثرية رومانية يعتبر ثروة تمثل رأسمالا رمزيا يمكن الاستفادة منه.



صورة 5. موقع تيمقاد الأثري بولاية باطنة.

المصدر: <https://fr.wikipedia.org/wiki/Timgad>; consulté le 14 avril 2024



صورة 5. موقع مدينة سبيطلة في ولاية القصرين.

المصدر: <https://fr.wikipedia.org/wiki/Sbeitla>, consulté le 15 avril 2024

ولئن اقتصرنا على هذين المثالين المعروفين فإنه يجب التذكير بأن المناطق الحدودية التي كانت مجالاً للرومنة التي استهدفت الدواخل قبل السواحل تشتمل هي الأخرى على عديد المواقع الأثرية التي لا تقل قيمة عن سبيطلة وتيمقاد²³. فأول خطوة يمكن القيام بها لتثمين هذا التراث الحدودي تبدأ بإحصائه والمحافظة عليه والسعي لإدراجه ضمن لوائح التراث العالمي. وتتمثل الخطوة الثانية في التعاون بين مؤسسات البلدين لإجراء حفريات وبحوث تتوَج في الأخير بإقامة متاحف يختص جيل من الطلبة في استعمال التقنيات الحديثة لتثمينها وهو ما يعبر عنه بالوساطة الثقافية²⁴ ويثمن كل ذلك لإقامة مسلك سياحية تشمل كل المواقع الأثرية التي تحتوي عليها تخوم البلدين.

وإذا نظرنا إلى الموروث الإسلامي للاحظنا في هذا الشأن انتشار نفس المذاهب أو الطرق الدينية مثل الإباضية في الجنوب الجزائري والجنوب التونسي وكذلك التيجانية التي تكاد تمتد إلى جانب الرحمانية إلى جل الجنوب التونسي والجزائر، ولعلّ ضريح أحد شيوخها بالقمار من منطقة وادي سوف كان أحد أسباب هذا الانتشار الواسع.

ولعلّ تنظيم تظاهرات مشتركة من هذا الجانب من الحدود أو ذاك يضيف حيوية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية من ذلك مهرجانات للسياحة الصحراوية تتعاقب من الخريف إلى الربيع وملتقيات للطرق الصوفية تحتوي على أنشطة متعددة وكذلك بعض التظاهرات الثقافية المشتركة (مهرجانات غنائية وشعرية) وبعض المعارض التي تقدّم فيها المنتوجات الغذائية المحلية²⁵ وخاصة منها البيولوجية التي يمكن أن تكون الأراضي الحدودية مجالاً خصباً لها وقد تصل إلى مرحلة التصدير إذا تمّ تثمينها والترويج لها. كما أن بعض المهارات الكمتسبة²⁶ في عدة ميادين كإنتاج واستغلال²⁷ الصوف والحلفاء والنسيج وتربية الخيول والفروسية، جلّ ذلك يمكن أن يتحوّل إلى منتج ثقافي وتجاري وسياحي يعطي دفعا للتنمية المحلية.

²³ Jamaludin Shable, 2004-2005, *Les institutions archéologiques postcoloniales de l'Algérie*, Master de recherche, Université de Pau et des Pays de l'Adour.

²⁴ Médiation culturelle

²⁵ Produits du terroir.

²⁶ Savoir-faire.

²⁷ الحدادي رضوان، 2021-2020، *استغلال الحلفاء بالبلاد التونسية زمن الحقبة الاستعمارية*، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة.

وفي نفس السياق لابد من توظيف الذاكرة الحدودية المشتركة والتذكير ببعض محطاتها وإنشاء مواقع تمثلها مثل منطقة غار الدماء التي كانت مقرا لقيادة جبهة التحرير والتي تحوّلت الى متحف في الغرض.



صورة 5. من بعض لوحات المتحف المشترك بغار الدماء بولاية جندوبة.

ولا يزال الموقع الاثري بشمتهو يحتوي على كتابات خطية لمن لجؤوا إليه من الثوار الجزائريين، يضاف إلى ذلك مناطق تمت بها أحداث جسيمة مشتركة مثل أحداث ساقية سيدي يوسف وقصف مدينتي في وادي زيتون بغار الدماء ومعركة وادي مليز يوم 4 أفريل 1938... ولعله من الضروري إنشاء متاحف مشتركة في مثل هذه المواقع تكون لها رمزية كبيرة وتستعمل في مسالك سياحية تشمل جوانب أخرى مكملّة.

ولا بد أن نذكر الى جانب ذلك بمواقع ووقائع أخرى تتجاوز مكان بذاته من ذلك خط موريس وشال الذي أقامه الاستعمار على طول الحدود²⁸ والمعارك المشتركة بين جيشي التحرير ومسالك تنقل الأسلحة من تونس إلى الجزائر، كل ذلك يمثّل تراثا ماديا ولا مادي مشتركاً يجب المحافظة عليه وتثمينه واعتماده لتطوير واقع المجال الحدودي.

وفي لأعله من الضروري أن تلعب المؤسسات الجامعية دورا أساسيا خاصة جامعات سوق أهراس وقالمة وتبسة والوادي إلى جانب جامعتي جندوبة وقفصة وبعض المؤسسات الحدودية التابعة لجامعة القيروان (معاهد عليا بسيطة والقصرين). يمكن أن تتفق هذه المؤسسات الجامعية على حد أدنى من البرامج العلمية المشتركة وكذلك الاتفاق على نسبة من الطلبة يقع تبادلهم الى جانب تنظيم ندوات علمية مشتركة. وعلى هذا الأساس ستصقل ثقافة المواطنة المشتركة التي ستبني أجيالا قادمة.

²⁸ Mohamed Lazhar Gharbi, 2021, Une transition postcoloniale à la tunisienne, CPU, Tunis.



الخاتمة

تعتمد التنمية الحدودية على استغلال التراث الطبيعي (مياه، أشجار، فلاحية بيولوجية...) أصبحت كلها مواد نادرة ذات قيمة مضافة مرتفعة وتمثل ثروة مستقبلية. كما أنها تعتمد على تهمين التراث المادي والتاريخي لخلق منتج جديد يعبر عن هوية ثقافية يجب التسويق لها في إطار العولمة عن طريق السياحة والمعارض والتقنيات الحديثة، وهي في نظرنا شروط التنمية المستدامة التي تكمن في المحافظة والتهمين.

ونلاحظ تواجد ثلاثة أحواض تراثية وبيئية ممتدة عبر الحدود التونسية الجزائرية وهي:

- الحوض الشمالي من البحر إلى حدود الكاف وقسنطينة متكوّن أساسا من التراث الطبيعي (الجبال والمياه) والتراث الاستعماري،

- الحوض الأوسط يبدأ من حيدرة وينتهي في منطقة قفصة وتبسة يحتوي أساسا على التراث الروماني وكذلك الاستعماري،

- الحوض الجنوبي يبدأ من بلاد الجريد ووادي سوف يشتمل على التراث الواحي والصحراوي وخاصة الثقافي.

وتستطيع هذه الاحواض التراثية والبيئية أن تكون منطلقا لتنمية مندمجة ومستدامة ينخرط فيها الفاعلون المحليون أنفسهم. ولا يتم ذلك إلا بالوعي بقيمة التراث الطبيعي (المحافظة على بعض الحيوانات مثل الحبارة وبومزين) والتصالح مع التراث التاريخي بكل حقه، فلا يوجد تراث استعماري وإنما هو تراث تونسي أو جزائري بني على أرض ومواد محلية شيّد في الفترة الاستعمارية ولعله من الملفت للنظر أن التراث "الاستعماري" موجود في المناطق التي تحتوي على مواقع رومانية لأن الذاكرة الاستعمارية شيّدت على أنقاض الذاكرة الرومانية وهو ما من شأنه أن يبسرّ تهمينها واستغلالها لبعث الحياة في الحدود لتصبح مناطق جاذبة بعد أن تحولت إلى مناطق طاردة لسكانها الذين اتجهوا إلى الحواضر وإلى ما وراء البحار فعششت في أراضيهم وجبالهم كل أنواع المخاطر الطبيعية والاجتماعية.

ولن تتم التنمية الحدودية إلا بتصالح المركزي مع المحلي وتصالح الفرد مع هويته المجالية، ومن هذا المنطلق يمكن أن نبني المواطنة التي هي عقد بين الدولة والفرد على أساس الانتماء الجماعي الذي يمرّ حتما عبر قاعدة الانتماء المحلي.

المصادر والمراجع

الحدادي رضوان، 2021، *استغلال الحلفاء بالبلاد التونسية زمن الحقبة الاستعمارية، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة.*

حمري خالد، 2021، *المجال الحدودي بالشمال والوسط الغربيين للبلاد التونسية 1871-1962، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والفنون والانسانيات منوبة.*

مرصد الصحراء والساحل، 2009، *الحوض المائي للصحراء الشمالية الجزائرية وليبيا وتونس، الإدارة المشتركة لحوض عابر للحدود، تونس.*

التايب منصف، 1998، "المجال والسلطة في البلاد التونسية خلال الفترة الحديثة"، *روافد، العدد الرابع، ص 7-45.*

محمد حميد محمد، 2021، "الاقتصاد الدائري ودوره في تحقيق التنمية والمستدامة"، *مجلة الريادة للمال والاعمال، العدد الثالث، ص 159-168.*

غربي محمد الأزهر، 2024، "تحييز المجال القبلي التونسي-الجزائري. هل صنع الاستعمار الحدود؟"، *الحدود والمناطق الحدودية ببلاد المغرب عبر التاريخ، فعاليات الندوة الدولية العلمية الثانية قفصة (3-6 ماي 2023)، تونس، ص 365-391.*



- ACHOURI GHARSALLI Safa, 2017, *Renaissance et extension de la gare de Haïdra, mise en valeur d'un patrimoine ferroviaire*, Editions universitaires européennes, Sarrebruck.
- AMIN Samir, 1973, *Le développement inégal. Essai sur les formations sociales du capitalisme périphérique*, Edition de Minuit, Paris.
- BOUKECHOUR Mohamed Salah, 2016, *De De Dietrich à Ferroviol. Destin d'une entreprise de la colonisation à l'indépendance de l'Algérie*, Darkortoba, Alger.
- GHARBI Mohamed Lazhar, 1994, *Impérialisme et réformisme au Maghreb. Histoire d'un chemin de fer algéro-tunisien*, Cérès Production, Tunis.
- GHARBI Mohamed Lazhar, 2021, *Une transition postcoloniale à la tunisienne*, CPU, Tunis.
- HAOUAT Mohamed Laarbi, 2004, *Le problème frontalier de la Tunisie depuis l'époque ottomane jusqu'à nos jours*, Université Paris III Sorbonne nouvelle, dactylographié, Paris.
- MAUNOIR Charles, SCHIRMER Henri, 1905, *Sahara algérien et tunisien. Journal de route d'Henri Duveyrier*, Auguste Challamel Editeur, Paris.
- SHABLE Jamaludin, 2005, *Les institutions archéologiques postcoloniales de l'Algérie*, Master de recherche, Université de Pau et des Pays de l'Adour, Pau.
- SHILI Ridha, *Milieus d'affaires et activités minières coloniales, les mécanismes de l'emprise des structures (Le cas de quelques mines du Centre-Ouest tunisien 1900-1956)*, thèse de Doctorat, Université de Reims Champagne Ardenne, 1996.
- SAUVE Sébastien, NORMANDIN Daniel, MCDONALD Mélanie, 2016, *L'économie circulaire, une transition incontournable*, PUM, Montréal.
- ELLOUMI Mohamed, « La gouvernance des eaux souterraines en Tunisie », *IWMI project report n° 7, Groundwater governance in the Arab World*, décembre 2016, pp. 91-95.
- EL WATAN*, 5 juillet 2021.
- HELALI Arbia, « La frontière romaine de Tunisie : l'axe Tacapes-Turris-Tmalleni », Commission Nationale d'Histoire Militaire, *Les Confins de Tunisie à travers les âges*, Ministère de la Défense Nationale, Tunis, 2012, pp. 7-23.
- MONCHICOURT Charles, 1938, « La frontière algéro-tunisienne dans le Tell et dans la Steppe », *Revue tunisienne*, n° 374-375, 1938, pp. 31-59.
- <https://www.webdo.tn/fr/actualite/les-billets-de-hatem-bourial/patrimoine-entree-du-train-en-gare-de-haidra/188254>, consulté le 14 avril, 2024.
- https://www.entreprises-coloniales.fr/afrique-du-nord/Djebels_Slata+Hameima.pdf, consulté le 12 avril, 2024.
- <https://cultpatr.blogspot.com/2017/10/le-village-de-bou-aouane-et-sa-mine.html>, consulté le.
- <https://fr.wikipedia.org/wiki/Timgad>, consulté le 14 avril 2024.
- https://fr.wikipedia.org/wiki/Parc_national_d%27El_Feija, consulté le 14 avril 2024.
- <https://fr.wikipedia.org/wiki/Sbeitla>, consulté le 15 avril 2024.